مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
ISSN : 2392 - 5361
العدد الثالث/ جوان 2016

Mila Univ center. Publish. Co.

عنفُ اللغةِ ولغةُ العنف: بحثٌ في الأُصُول وتصحيحٌ للمفاهيم

The violence of language and the language of violence : A Search for origins and a correction of concepts

أ. محمد الحبيب منادي
جامعة عمّار ثليجي- الأغواط (ملحقة آفلو) - الجزائر

تاريخ الاستلام: 2015/11/19 تاريخ قبول النشر: 15/ 2016/02

الملخص :

يأتي هذا البحث ضمن مباحث " العنف اللساني " ويهدِف إلى مناقشة موضوع " عنف اللغة "لمعرفة كيف تتحوّلَ الكلمات إلى " لَكَمَات" ؟، وكيف تصيرُ اللغةُ " لُغماً" ، وخُيُوط الكلام تغدو كمينا"! ؟ ويسعى البحث للإجابة على سؤال مؤدَّاه : هل لغتنا العربيَّة عنيفة ؟! وما مظاهر هذا العُنف في لغتنا ؟ وما هي أسبابه ودوافِعُه ؟

والدَّافع لمثل هذه التَّساؤُلات ما تتضمَّنه أُصُول لغتنا العربيَّة ... إذ نجد أنَّ الإعراب من معانيه "الفُحش"!، والكلام من معانِيه " الكَلْم "! ... ، وأمثلة كُتُب النَّحو لَم تَمَلَّ يوماً من ضربِ زيدٍ لعمرو ، وقتلِ خالدٍ لسعيد ...

ويتناول البحثُ – أيضاً – ما يصنع هذا العُنف في لغتنا العربيَّة ، بتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة عن المصطلحات القرآنيَّة كمفهومَي (الشَّهادة) و(التَّفجير) ... ، وهما ما بات يصنع صُورة (المسلم) و(العربي) على شاشات التّلفاز ، وصفحات الجرائد ، لا سيما وأنَّ كلماتٍ من قبيل: " قطع الأعناق " و" سَحل الجثث " و" سبي النّساء " و" تفجير المباني " ... وغيرها من مظاهر العنف التي باتت تتسابق إلى عرضها " غُرَف الأخبار" هي ما يُعرَّف به مصطلح (العربي) أو (المسلم) عند (الآخر) ... لنُبيِّن أنَّ (التَّفجير) و(الشَّهادة) لم يكُن لهما أيُّ ارتباط بمعاني (العُنف) من قريبٍ أو بعيد !.

كما يعرِض البحث بعض مظاهر العُنف اللغوي في ثقافتنا الشَّعبيَّة المتداولة ، لنختم بدعوة لـ (السَّلام) وكيفيَّة تطوير خطابنا اللغوي ، لتتحوَّل معه لغتنا من (خِطاب القوَّة) إلى (قوَّة الخِطاب)، والانتقال من (عُنف اللغة) إلى (نفع اللغة). ولهذا ارتأينا أن يكون عنوان هذا البحث: عُنفُ اللغةِ ولُغةُ العنف (بحثٌ في الأُصُول وتصحيحٌ للمفاهيم) .

الكلمات المفتاحية: اللغة ، العنف ، الإرهاب ، التَّفجير .

Abstract :

This study is a part of the investigations into verbal violence. It aims at discussing the violence of language to see how words turn into bashes, language into shots, and the threads of speech into an ambush. The study seeks to answer the following question: is our Arabic language violent? How is violence manifested in our language? What are its causes and effects?

The motivation for these questions is what constitutes the assets of the Arabic language. One of the meanings of "syntax", for instance, is "obscenity", and one of the meanings of "speech" is "hurt. Grammar books never tire of giving examples such as:" Zaid hits Amr " and "Khaled kills Said".

This study also tackes the effect of violence on our Arabic language. It corrects some misunderstandings of Quranic terminology, such as: «al-shahadah" (martyrdom) and «al-tafjeer" (infidel), which now constitute the image of Muslim and Arab on television and in the newspapers. Words like "cutting necks", "dragging corpses", "women captivity", and the "bombing of buildings" and other manifestations of violence are what define the terms (Arab) or (Muslims) for the (Other). We shall evince that (explosion) and (martyrdom) do not have any relation with the meaning of (violence). The paper shows some aspects of linguistic violence in our popular culture, and we end with an invitation for (peace) and how to develop our linguistic discourse so that our language will evolve from the (discourse of power) into the (power of discourse) and from the (violence of language) into the(benefit of language). That is why we have chosen the title above.

***Key words**: language of violence, violence of language, terrorism, peace.*

القسم الأوَّل : البحثٌ في الأُصُول :

من مظاهر العنف في لغتنا العربيَّة:

نسعى في هذا القسم من البحث للإجابة على سؤال مؤدَّاه : هل لغتنا العربيَّة عنيفة ؟! وذلك بتتبُّع بعض مظاهر العُنف في أُصُول العربيَّة وأمثلتها وشواهدها ... بعرض نماذج لما يفرضه مقامُ المقالِ.

01 – العنف بين " الإعراب " و" التَّعريب " !

يقول ابن فارس في مادَّة (عنف) : « العينُ والنُّون والفاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خِلافِ الرِّفق. قال الخليل : العُنفُ : ضدُّ الرِّفقِ . تقول عَنُفَ يعنُف عُنفاً فهو عنيف، إذا لم يَرفُق في أمره ... ويُقال: اعتنفْتَ الشَّيء ، إذا كرهتَه ووجدتَ له عُنْفاً عليك ومشقَّة. ومن الباب: التَّعنيف ، وهو التَّشديد في اللوم . فأمَّا العُنفوانُ فأوَّلُ الشَّيء » [1]. وأوَّل مظاهر العنفِ في (العربيَّة) ما يظهر في جُرثومتها المتكوِّن من (ع . ر . ب) ، وهذا بعض مظاهر العُنف فيها : (عرب) : « العين والرَّاءُ والباءُ أُصُولٌ ثلاثة : أحدُها فسادٌ في جسمٍ أو عُضو » [2] .

« وقولُهم : [عَرِبَت] معدتُه ، إذا فسدت ، تَعْرَب عَرَباً . ويُقال من ذلك : امرأةٌ عَروبٌ ، أي فاسدة » [3] . وليس هناك سببٌ لرفض العنف وشدَّته إلاّ لما يكون منه من فساد ، وإلاّ فخير الكلام ممَّن بعض أسمائه السَّلام أُنزل على نبيّ السَّلام يحمل شدّة وثقلاً : [إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا] [المزمل : 05] .

ولفظة (الإعراب) و(التّعريب) ، تنصرف إلى معنى فيه من العُنف بقدر ما فيه من الفُحش، وذلك أنَّ " «الإعراب" و"التّعريب" الفُحش وما قبُحَ من الكلام. قال ابن عبَّاس في قوله تعالى "فلا رفث ولا فُسُوق" هو العِرابة في كلامِ العرب. والعِرَابة كأنَّه اسمٌ موضوعٌ من التَّعريب وهو ما قَبُحَ من الكلام » [4]. وقد احتفظت بعض تقليبات الأصل (ع . ر . ب) بمظاهر العنفِ أيضاً ، وهذه التَّقليبات ستٌّ هي (عرب، عبر، برع، بعر، ربع، رعب)، وإليك بيان ما أوردته معاجم اللغة الضَّابطة للأُصُول من بيان مظاهر هذا العُنف:

– (رعب): « الرَّاء والعينُ والباءُ أُصُولٌ ثلاثةٌ: أحدُها الخوف، والثَّاني المَلْء، والآخر القَطْع » [5].

– (ربع) : وهو أحدُ ثلاثة أُصُول وتعني الإشالة والرَّفع . يُقال : رَبَعْتُ الحجر، إذا أشَلْتُه . والمِربعة : العصا التي تُحمل بها الأحمال حتَّى تُوضَع على ظُهور الدَّواب.

– (عبر) العين والباء والرَّاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على النُّفُوذ والمضيِّ في الشَّيء. يُقال : عَبَرتُ النَّهرَ عُبُوراً . ومن الباب العَبْرَة ، قال الخليل : عَبْرَة الدَّمع : جَريُه . قال : والدَّمع أيضاً نفسُه عَبْرَة . قال امرؤ القيس : وإنَّ شِفائي عَبرةٌ إن سَفَحتُها = فهَل عند رسمٍ دارِسٍ من مُعوَّلِ .

وقولهم : عَبِرَ فلانٌ يَعْبَرُ عَبَراً من الحزن ، وهو عَبْرَانُ . والمرأةُ عَبْرَى وعَبِرَةٌ ، فهذا لا يكون إلاّ وثَمَّ بُكاء [6]. والبكاء هو أحد نواتج من يُمارَس عليه العنف ، ولعلّه أهونه على المعتدى عليه .

ولأنّ الكلام هو أبرز مظاهر التَّجسُّد اللغوي فإنّنا نجد من معانيه الأصليَّة (الكَلْم) أي الجرح ، والكلام في قسوته وعنفه يفوق (الكَلْم) ، كما يُبيِّنُه قول الشَّاعر :

جراحات السِّنان لها التئامٌ = ولا يلتامُ ما جرح اللسانُ .

وعنف اللسان يعكس عُنف الباطن والجَنان ، وهذا أشدُّ أنواع العنف كما يقول ابن المقفَّع : « إنَّ أشدَّ العداوة عداوة الجوهر... وليست لعداوة الجواهر من صلح ، فإنَّ الماء وإن أسخن ... فليس يمنعه ذلك من إطفاء النَّار... » [7].

وبهذا يُمكن فهم كيف يكون " الكلام "" فِعلاً " ، وهو آخر ما توصَّل إليه الدَّرس اللساني الحديث فيما يُسمَّى بنظريَّات (أفعال اللغة) في الدَّرس التَّداولي ، حيث إنّ ألفاظ وتعبيرات العنف تمثّل أفعالاً لغويّة إنجازيّة وتأثيريّة تؤدّي وظائف تداوليّة معيّنة ، وتسهم في بناء الخطابات العنيفة وتخصيصها بنيويّا ونمطيّاً ...

ولا يخفى على أحد ما للكلمة من فعل في حياتنا ، حتّى إنّه ليسهُل علينا وصف " القول " بأنّه " فعل " ، بل قد يكون " القول " هوَ هوَ " الفعل " ، وفي القرآن الكريم عتابٌ شديدٌ لمن يُخالف قولُه فعلَه، ونكتفي منه في هذا السّياق بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة الصّفّ : 02] . ويكفينا دلالةً على "فعل الكلام " أنّ أصل وُجودنا " الفعلي " كان بـ " كلمة " (كُنْ) فـ (كُنَّا) . ولهذا يقول " ديريدا " : إنَّ « اللغة ليست أداةً نستعملها ، بل هي المادَّة التي نحن مصنوعون منها » [8] . فـ (في البدء كانت الكلمة) ...

وأعظمُ مظاهر العُنف (عنفُ كلمة) : فالطَّلاق وهدمُ الأُسر يتمّ بكلمة ، وقذفُ المحصنات والجَلْدُ عليه يتمّ بكلمة ، والكذبُ كلمة ، وشهادة الزُّور كلمة ، و(أوَّل الحرب كلمة) [9] ، والسبّ كلمة ، والرِدَّة والخروج من الملّة – والعِياذُ بالله – إنّما يكون برفض " كلمة " ، كلمة (لا إله إلاّ الله) وأعظِم بها من كلمة ... ودخول الجنَّة بكلمة ، ودخول النَّار – والعياذ بالله – بكلمة ، « وهل يكبُّ النَّاس في النَّار على وُجوههم إلاّ حصائد ألسنتهم » [10] .

02 – ضربَ زيدٌ عمرواً ! :

لا يكاد يخلو كتابُ نحوٍ – قديم أو حديث – من هذا المَثَل الذي أوجع فيه زيدٌ عَمرواً الضَّربَ لقُرون ! ، ولسبب هذا الضَّرب قصَّةٌ طريفة يرويها " المنفلوطي " [11] عن " داود باشا " – أحد وزراء الدَّولة العثمانيَّة – حين أراد أن يتعلَّم اللغة العربيَّة – وسأل شيخه يوماً : ما الذي جناه عمرو من الذُّنوب حتَّى استحقَّ أن يضربه زيدٌ في كلّ درس ... إلى أن جاء من يُبرِّر سببه بالقول : إنّ زيداً اعتدى على "واو" الوزير فسرقها من اسمه " داود" وأضافها إلى اسمه "عمر" ليصير " عمرو" ! فسُرَّ الوزير واستبشر لذلك ... وهذا المثال يُرسِّخ العنف المتجذِّر عند العرب في تعليم مبادئ العربيَّة ، حتَّى أصبح موضع تندُّر وفُكاهة . [انظر الملحق 01] .

03 – الشَّتائم من مظاهر عنف اللغة :

الشَّتم مُشتقّ من (الشَّتامة) أي (قُبح الوجه) كأنّ الإنسان الذي يشتم يراه النّاس قبيحاً وإن كان حسن الوجه . والعكسُ صحيح أيضاً فحُسنُ البيان يجعل المرءَ جميلاً في أعيُن سامعيه ، فها هو الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في وصفه لعمّه العبّاس بأنّه (جميل)، ما يُبيِّن أنَّ جمال الخِلقة يُمكن أن يصنعه جمال اللغة ، إذ عند استغراب العبَّاس – رضي الله عنه – لذلك الوصف، أجابه الرّسول صلى الله عليه وآله وسلّم بأنّ بيانه جميل ، ممّا جعله هو جميلاً في عيني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وقد ساهم الإعلام – لا سيما الغربيّ منه، والأمريكي خُصُوصاً – في توظيف مظاهر القبح والعنف بأنواع عديدة من العنف اللفظي ، باستخدام ألفاظ الشَّتم ، والسبّ ، ممّا أصبح على ألسنة كلّ بذيء. وعنف الشَّتائم في " الأفلام الأمريكيَّة " – مثلاً – جعل المترجمين يُخفّفونها بالتّرجمة إلى عبارات لا تقلُّ عن أصل الملفوظ عُنفاً مثل: "عليك اللعنة" ! . و"سُحقاً ! " و" بُعداً "... وغيرها من الألفاظ النَّابية . كما يُستعان في مجتمعاتنا العربيَّة بـ " الحمار " و"الكلب" وألفاظ "الجنس" وسوءات الرِّجال والنِّساء لاستحداث مُعجم العُنف الذي يتمّ استخدامه عند غياب العصا والسكّين – أو معهما – في المشاجرات، والمهاترات التي صِرنا نقرأ عنها في صفحات الجرائد، ونُعاينها على شاشات التّلفاز، وذلك لتسديد لَكَمَات لُغويَّة من قبيل: " يا ابن الفاعل ! ". أو يا ابن "الفاعِلة" ! ... وإذا كان الرَّسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قد بيَّن أنَّ المؤمن ليس بالسبَّاب ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء ، فقد نقل القرآن الكريم بعض شتائم اليهود وحذَّر منها ، أين يتمّ لَيُّ عُنُق اللغة ليُصنع منها كلمات في غاية السُّوء يُراد بها الإساءة للرَّسول صلَّى الله عليه

وآله وسلَّم ومنها كلمة " راعِنا " ، التي أمر القرآن باستبدالها والنَّهي عن استعمالها ، و"راعنا " « هي كلمة ظاهرها الأدب ، ولكنّها في العربيّة لها معانٍ أخرى حمقاء . وفي العبرانيَّة كلمة شتمٍ قريبةٌ منها ، فإنّ لفظ (رع) عند اليهود معناه شقيّ شرّير. ولفظ (راع) معناه الشرّ والشّقاوة فإذا أضيف إلى ضمير المتكلّم صار بلسانهم (راعينو) ومعناه في الخطاب أنت ضرّنا وشقوتنا ... » [12] . وكما يكون " السكّين " مستعملاً للخير والشرّ ، فكذلك كلمات اللغة ، وهو ما استعان به اليهود في كلمة " راعنا " لما لها من تعدُّد في الدّلالة « ولعلّهم – والله أعلم – كانوا يلوون ألسنتهم في النّطق بها ليقرّبوها من الصّيغة العربيَّة ستراً لنيّتهم واكتفاءً بالرّمز المفهوم فيما بينهم (وهو راعنا) . فأمر الله المؤمنين أن يُخاطبوا الرّسول بقول (انظرنا) حتّى لا يجد المنافقون سبيلاً إلى التّلاعُب بلفظٍ ذي وجهين » [13] .

04 – عنف اللغة من عنف البيئة :

وعنف اللغة قد يكون بسبب عنف البيئة ، وقسوتها ، وعدم رفقها على من فيها ، ومنها ما نجدُه في قول الشّاعر[14] الذي – حتّى في حال المدح – جاءت ألفاظه قاسيةً غليظةً ممجوجة ، كقسوة بيئته أو أشدّ ، وذلك حين قال في مدحه الخليفة :

أنتَ كالكلب في الوفاء = وكالتَّيس في قراعِ الخُطوب

أنتَ كالدَّلوِ لاَ عَدِمتُك دَلواً = مِن كبار الدِّلاْ كثيرِ الذّنوب .

ولا شكَّ أنَّ دلالة " الكلب " هنا غير دلالتها فيما سبق من الشَّتم ، ومع ذلك ففيها من القسوة ما لا يخفى ، لا سيما وقد همَّ بعض الحاضرين بالفتك به ، لولا أنَّ الخليفة – كما يزعم هذا الأثر الأدبي – قد تفطَّن لأثر البيئة العربيَّة القاسية عليه ، ولهذا نجد هذا الشَّاعر ذاته قد تغيَّرت لُغتُه ورقَّت بعد قَسوة ، ولانَت بعد شدَّة ، حتَّى استوقفه الخليفة وهو يقول للحاضرين : لقد خِفتُ عليه أن يذُوب رِقَّةً ! ، وذلك حين قال :

عُيُون المها بين الرّصافة والجسرِ = جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أَعَدْنَ لَيَ الشَّوقَ القَديم ولـم أكُن = سَلَوتُ وَلكن زِدتُ جمراً على جمرِ .

وهذا يُبيِّن ما للبيئة من أثرٍ في صناعة اللغة بقسوتها أو لينها .

وقد خصّ كثيرٌ من دارسي علم الاجتماع هذا الجانب ببعض الدِّراسة والبحث ، كما كتب البعض الآخر في عنف اللغة ، مثل : " جان جاك لوسركل " في كتابه " عنف اللغة " ،

الذي سبقه في الكتابة عنها عدد من الأعلام منهم : فرويد ، لاكان ، دولوز ، غواتاري ، جاكوبسون وآخرون ... [15] .

05 – عُنف اللغة في الخطاب الشَّعبي:

جاء كتاب (الأنماط الثّقافيَّة للعنف) لـ" باربـرا ويتمر" لمعالجة ظاهرة العنف الذي أصبح جزءًا من الخطاب الرَّمزي الاجتماعي ، المتجسّد في اللغة ، والذي يقوم على فرضيَّتين أساسيَّتين ، أولاهما: العُنف فطري، أو متأصِّل في البشر ، وثانيتهما ، أنَّ العنف مكتسب بالسُّلوك . [16] . وأبرز مظاهر هذا السُّلوك هو السُّلوك اللغوي .

ولغة العنف – في تطوُّرها – فاقت في خطابنا الشَّعبي الجزائري حُدُود العنف المعهود للغة، حتَّى أصبحنا ننُعت بأنّنا قومٌ " نأكل النِّساء ونزْني بالطَّعام ! " لفرط الفُحش الذي يتلفَّظ به البعض لأدنى مخاصمة... وليس عجيباً أن تقترن ألفاظ العنف بحال الخصام والبُغض والتَّنافُر بل العجيب أن تكون تلك الألفاظ سببا للمودَّة والحبّ، واعجبْ لهذا العنف اللفظي حين يُولّد حُبّاً كما يقول جميل بُثينة: وأوَّل ما قاد المودة بيننا = بوادي بغيض، يا بثين ، سبابُ

فكان العنف اللفظي الذي حدث بينهما بالسِّباب قد حَرَثَ قلب " جميل " وغرس فيه حُبّاً .

وقد تجاوز " الجزائريّ " حُدود ما جاء به " جميل بُثينة " لتُصبح ألفاظ التّفجير – في معناها الحديث – والموت والتّقتيل ، والانتحار ... هي قاموس محبَّته وتغزُّله فتجد المحبوبة تُوصف بـ "البُومبة " ! أي القنبلة ! لفرط جمالها وحُسنها، وتراهُ يقرن كلمة " أحبّك " بعبارة" ... ونموت عليك" ! وذلك عندما تصل " المحبَّة" إلى شغاف قلبه فلا تُبقي منه شيئاً ولا تذرُ ...

وإذا وَعَدَ محبوبته بشيء فلا سبيل لإثبات ذلك إلاّ زعمه أنَّ كلمته " بارود " ! كناية عن عدم التّراجُع عمّا قاله أو وعد به ...

وأعذب الكلمات – عندنا – عَذاب ، إذ تصنع أفراحُ الجزائريِّين فساد الرَّأي بـ " الرَّاي " الذي أصبحت كلماته تكتب قاموس العنف اللغوي ، فالعيون " حبّات رصاص" ! ، وقُلوب العشَّاق معلّقة عند الجزَّارين" قلبي وقلبك عند البوشي معلقين " ! ، وإذا كان من الحبّ ما قتل، فإنَّ أشكاله عندنا تنوَّعت بين وضعه على سكّة حديد " نحطّ راسي على الرّاية" ! أي سكَّة الحديد ، وإذا لم تكن هذه الطَّريقة معبِّرة أُعطيت المحبوبة ما تُعبِّر به عن حُبِّها، ويُعبِّر به المحبّ عن صِدق هُيامه بقوله: " هاكي البيا، تيري عليا وفرغي

الشّـارجور" !!! ... ممَّا يجعل اللغة – من أفصح مستوياتها – عندنا – حتَّى أكثرها عاميَّةً – لا تجد لدَّتها إلاّ بما تحمله من عُنف أو فُجور أو قسوة ...

القسم الثّاني : تصحيحٌ المفاهيم :

إنَّ بعض ما شكَّل مظاهر العنف عندنا أفكارٌ كثيرة مغلوطة ترى (الظّلم) من شيم النّفوس ، وغيرُ السَّويّ هو من لا يظلم كما قال الشّاعر :

والظّلم من شيم النّفوس فإن تجد = ذا عِفّـةٍ فَلِعِـلّةٍ لاَ يَظْـــــلِمُ

وعلى هذا المنطق نجد من يرى أنَّ العربيَّ لا تكتملُ عربيَّته إلاّ بعنفه ، ولسانُ حاله:

وما أنا إلاّ من غزيّـة إن غـوت = غـويتُ وإن ترشُد غزيَّةُ أرشُدِ

وهناك من لا يرى في المسلم غير العنف، فهو إن لم يُمارسه فقد نواه – ولسان حاله، أيضاً:

فكل هؤلاء في الهوا سوى = **من لم يمارس عنفه فقد نوى**

وينسى كلُّ هؤلاء مخاطبة الله لأفضل خلقه قائلاً : [فَبِمَا **رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ** وَلَوْ كُنْتَ **فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ** لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** فَإِذَا عزمت فتوكَّلْ علَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ] [آل عمران : 159] .

بل ترى مثل أولئك يُمارسُون أسوأ أنوع العُنف بالتَّأويل السيِّء لآيات الذّكر الحكيم ، واتّخاذه ذريعةً لممارسة العُنف والإرهاب باسم الدِّين ، وأصبحت ثقافة العُنف عند هؤلاء مجسِّدة للثّقافة الإسلاميَّة. هذه الثّقافة التي « ربطت بين القتال والقتل والغزو والشَّهادة والشَّهيد، وكذلك قلّلت من قيمة الحياة والحرص عليها وطلبت ممَّن يُحبُّ الحياة ويكره الموت أن يشعر بالدَّنب، وأنَّ الذي يُقتل في سبيل الله سيدخُل الجنَّة مباشرةً بدون انتظار. وشجَّع النَّاس على الموت ، وربُطت الشَّهادة بالموت بالمعركة » [17] . ويُضاف إلى ذلك الانتقائيَّة التي تُمارس على الخطاب القرآني وبهذا « أصبحت الثّقافة الإسلاميَّة انتقائيَّةً ، فمن يُريد القتال يُورِد آيات القتال ، ومن يُريد السِّلم يُورد آيات السّلم » [18] . فوقع بهذه الانتقائيَّة ممارسة للعُنف على الخطاب القرآني وبِه ... ونكتفي في هذا المقام ببيان مُصطلحين يحملان في الثّقافة العامَّة السَّائدة عُنفاً ظاهراً ، وهما مُصطلحا (التّفجير) ، و(الشَّهادة) .

ونكتفي في بيان خطأ دلالتهما على العُنف بإيراد النصّ القرآني ، ليبقى متضمَّن القول دالاً على بُعدهما عن أيّ معنى من معاني العنف .

01 – التَّفجير :

فلنفجّر الأرض من تحتهم !

يكفي لقارئ هذا العنوان – دون معرفة محتواه – أن يُصنّف صاحبه في عداد "الإرعابيّين"، لأنّا لم نألف استعمال هذا المُصطلح إلاّ فيما يُريق دماء الأبرياء ، ويُزهق أرواحهم ، بزعم أنّهم " كفّار " !! ولكنّ المتدبِّر لكلمة (تفجير) في القرآن الكريم لا يجدها تشعّ إلاّ بركة وخيراً وحياةً ... ، وهو دعوة لتفجير الأرض بالخير في زمن امتلأت فيه بأشلاء الأبرياء .

وذلك أنَّ التَّفجير في القرآن الكريم لا يكون إلاّ بالخير ، وهذه هي الآيات التي تتضمَّن لفظ التَّفجير الذي لم يُستعمل إلاّ للماء الذي تكون به الحياة :

– ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ **فَانْفَجَرَتْ** مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .
[البقرة : 60] .

– ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا **وَفَجَّرْنَا** خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف : 33] .

– ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ **وَفَجَّرْنَا** فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ [يس : 34] .

– ﴿ **وَفَجَّرْنَا** الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: 12] .

– ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ **يُفَجِّرُونَهَا** تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: 06] .

– ولهذا نقول ألم يأنِ لنا أن نُفجّر عيون الأرض ، ونستخرج خيراتها ، بدل توزيع الأشلاء، وتفجير الأجساد ، باسم الإسلام ، مرّة ، والشّهادة مرّات ... ؟!

02 – الشَّهادة : شهادة الحيّ على حياة الشَّهيد !

وهنا ننقُل شهادة الحيِّ – سُبحانه وتعالى – على حياة (الشَّهيد) ، وأنَّه لم يقترن في القرآن بمعاني القتل للنَّفس ، وفي هذا يقول " محمّد شحرور " : « ... الشَّهادة والشَّهيد لا علاقة لهما بالموت والقتال والقتل . وأنَّ الشَّهيد لا يُمكن أن يأخُذ هذا اللقب إلاّ وهو على قيد الحياة » [19] . وكيف يرتبط لفظ (الشَّهيد) بالعنف والقتل وهو من أسماء الله تعالى (الشَّهيد) ؟! ، الذي من أسمائه أيضاً (السَّلام) . وفي الآيات الآتية ما يُبيِّن بُعد هذا المُصطلح عن كلّ معاني العُنف والشدَّة في أعلى مستوياتها ، وهي (القتل) ...

– ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ **وَاللَّهُ شَهِيدٌ** عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

[آل عمران : 98] .

– ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ **اللَّهُ شَهِيدٌ** عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ . [يونس : 46].

– ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ . [الحجّ : 17] .

والآيات كثيرة جداً تتضمَّن لفظ (الشّهيد) أو أحد مشتقاته ، ولا تجدُ له أيَّ ارتباطٍ بـ (القتل) الذي هو أصل التَّعريف المترسِّخ في ثقافتنا الإسلاميَّة ، ولا تجد له أيّ ارتباط بالعُنف واقرأ إن شئت آيات : [سبأ : 47] ، [فصلت : 47] ، [البقرة : 133] ، [البقرة : 143] ، [آل عمران : 99] ، [آل عمران : 140] ... إلخ .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ **أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت : 53] .

وإن كان من حلٍّ يُرجى لمثل أولئك فإنّما يكون بتحوير دلالة قصيدة الدّكتور " يوسف القرضاوي " وتغيير من قيلت فيه لتصدُق على مثل أولئك حين يقول :

والحلُّ أن يحاربوا مثل الجَرَبْ = إن شئت سَلْ بَدراً وسَلْ شيخ العربْ

كـلاهما أعلن فـي صراحَة = وفـي صـراحة الـوزير راحَـة

ليـس لهم عندي من خلاصِ = إلاَّ الكـلام مـن فـمِ الرَّصـاصِ

لا رفق لا سمـاح لا هـوادَة = فحقُّـهم مِنَّـا هـو الإبـادَة

وليـقل القضـاء مـا يشاءُ = فمـا قضيـناه هـو القضـاءُ

واحذر من التَّمييز والتَّصنيفِ = مـا بيـن داعِ الزِّفـق والعنيفِ

فكلُّ هـؤلاء فـي الهَـوَا سَوَى = **مَن لـم يُمَـارس عنفه فقد نَوَى**

وممَّا وجب تصحيحُه – أيضاً – من المفاهيم اللغويَّة، تصحيح مفهوم (الإرهاب) واستبداله بمفهوم (الإرعاب) لارتباط هذا الأخير بمعنى القتل والقوَّة والعُنف كالذي ورد في قوله تعالى :

– ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا **الرُّعْبَ** فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : 12] . فارتبط الرُّعب بضرب الأعناق ... ، وهو في اللغة ذو أُصولٍ ثلاثة كما يقول ابن فارس : أحدُها الخوفُ، والثّاني الملءُ، والآخر القطع. فالأوَّل الرُّعب وهو الخوف ، والأصل الآخر كقولهم : سيلٌ راعبٌ ، إذا ملأ الوادي ، ورعبت الحوض إذا ملأته ، والأصل الثّالث

كقولهم للشَّيء المقطَّع : مُرعَّب [20] . في حين أنَّنا لا نجد في القرآن ربط (الإرهاب) بالقتل في اشتقاق فعل (رهب) ، لأنَّ من معانيها لغةً أصلان : ما يدلُّ على الخوف ، وما يدلُّ على دقَّةٍ وخفَّة [21] . تقول رهبتُ الشَّيء رُهباً ورَهَباً ورَهبةً. والتَّرهُّب: التعبُّد . ومن الباب الإرهاب ، وهو قدعُ الإبل من الحوض وذيادُها [22] . وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ **وَرُهْبَانَهُمْ** أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـهًا وَاحِدًا لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التَّوبة : 31] . وقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : 27]. وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ **تُرْهِبُونَ** بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : 60] . إنَّما تضمَّنت معنى التَّخويف لا القتل ، وممارسة العنف فيه مشروعة ، وهي – هنا – في أدنى مراتبها التي لا تتجاوز حدّ التخويف فقد « جاءت هذه الآية لإعداد العُدَّة لمنع الحرب والقتال والحفاظ على السِّلم ، وهي ما يُسمَّى الآن بالقوَّة الرّادعة [23] .

خاتمة :

إنَّ دواء العنف – لا سيما اللغويّ منه – لا يكون إلاّ بالكلمة الطيِّبة ، وبهذا جاء الأمر الإلهي باختيار أحسن الألفاظ : [وَقُلْ لِعِبَادِي **يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا] [الإسراء : 53] . بل إنَّ مخاطبة الأعداء لا تكون إلاّ بما هو ألين : [اذْهبا إِلى **فرعون إِنَّه طَغى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى.** قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى.قَالَ لَا تَخَافَا **إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**].[طه:43–46].

ولعلَّ من الحلول لظاهرة العنف الذي تحمله اللغة هو توظيف قوَّتها في إشاعة معاني المحبَّة والسَّلام ، فالحياة أقصر من أن تملأها الضَّغائنُ والأحقاد ، وصدق إيليا أبو ماضي حين قال:

ليست حياتُك غير ما صوَّرتها = أنت الحياةُ بصَمتِها ومقالها

فاربأ بنفسكَ ، والحياةُ قصيرةٌ = أن تجعَل الأضغانَ من أحمالها

كما أنَّ من حُلول ظاهرة العُنف تصحيح المفاهيم المغلوطة، وتجفيف منابع التَّطرُّف ، التي غالباً ما يكون الجهلُ قائدها ...

ولا يبقى – في هذا المقام – إلاَّ أن نقول :

إذا كان العالَمُ يدعو لـ (السَّلام) فنحن نعُبد (السَّلام) عزَّ وجلَّ ، فمن أسمائه (السَّلام)، وخير ما تُختم به المجالس السَّلام ، وفيه أقول ناظماً مختتماً هذا المقال بدعوةٍ للسَّلام :

أَدَامَ الإِلَــهُ عَلَيْــنَا السَّــلاَم = وَأَبقَــاهُ نُـوراً لَنَــا سَـرْمَـدَا
فَهَـذَا دُعَــائِي عِنْـدَ الرُّكُوع = (سَـلاَمٌ) أُكَـــرِّرُهُ سَـاجِداَ
فَأَمسِي سَــلاَمٌ وَيَـومِي سَـلاَمٌ = وَأَرْجُــو دَوَامَ السَّــلاَمِ غَــدَا
فَـ(أَفشُوا السَّــلاَمَ) يَدُمْ وُدُّكُم = كَذَا جَاءَ عَنْ سَيِّدِي (أَحْمَـدَا)
إِلَــهِي آمَنْــتُ بالسَّلْــمِ دِيـناً = فَزِدْ بالسَّــلاَمِ فُـؤَادِي هُـدَى
وَكُنْ لِي مُعِيناً وَكُن لِي نَصِيراً = إِذَا مَا رَفَعْـتُ إِلَيــكَ اليَــدَا
فَأَنتَ (السَّلاَمُ) وَمِنْكَ السَّلاَمُ = فَحَقِّقْ لِيَ المَجْـدَ وَالسُّــؤْدُدَا
وَأَزكَى السَّلاَمِ عَلَى المُصْطَفَى = وَأَرْجُــو بِــذَلِكَ أَنْ أَسْعَــدَا

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيِّدنا محمَّد وآله .

الاحالات والمراجع:

(1) – ابن فارس ، أبو الحسن أحمد : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السَّلام محمّد هارون ، الجزء 04 ، دار الفكر للطّباعة والنَّشر ، ص : 158 .

(2) – المصدر السَّابق ، ص : 299 .

(3) – المصدر السَّابق ، ص : 301 .

(4) – السّامرائي ، إبراهيم : مقدّمة في تاريخ العربيّة (الموسوعة الصّغيرة 53) ، منشورات وزارة الثّقافة والإعلام ، الجمهوريّة العراقيّة ، 1979 م ، ص : 71 .

(5) – ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، الجزء 02 ، ص : 409 .

(6) – انظر : المصدر السَّابق ، ص : 207 – 208 .

(7) – انظر : ابن المقفّع ، عبد الله : كتاب كليلة ودمنة ، (باب الحمامة المطوقة) ، المطبعة الأميريَّة ببولاق ، القاهرة ، مصر ، [1937 م] ، ص : 181 – 182 .

(8) – لوسركل، جان جاك : عنف اللغة ، ترجمة : د . محمّد بدوي ، مراجعة : د . سعد مصلوح، المنظَّمة العربيَّة للتَّرجمة، المعهد العالي العربي للتَّرجمة ، الطَّبعة الأولى ، الدَّار العربيَّة للعلوم ، المركز الثّقافي العربي ، الجزائر ، شباط (فبراير) ، [2005 م] ، ص : 15 .

(9) – مثلٌ شائع ، وهو يعكِس خُطورة الكلمة ، والحقَّ أنَّ إطفاء الحرب – أيضاً – إنَّما يكون بكلمة !

(10) – الحديث أخرجه الإمام أحمد، والتّرمذي، والنّسائي، وابن ماجه من رواية معمر، عن عاصم بن أبي النّجود ، عن أبي وائل، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقال التّرمذي: حسن صحيح .

(11) – المنفلوطي ، مصطفى لطفي : مؤلّفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة ، القسم الثّاني ، النَّظرات ، (زيد وعمرو) ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، [1984 م] ، ص : 261 ، 262 (بتصرُّف) .

(12) – دراز ، عبد الله : النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدّوحة ، قطر ، [1405 هـ – 1985 م] ، ص : 182 .

(13) – المرجع السَّابق ، ص : 182 .

(14) – وهو عليّ بن الجهم في مدحه للخليفة المتوكّل .

(15) – انظر مقدّمة المترجم لكتاب: لوسركل، جان جاك: عنف اللغة ، مرجع سابق، [2005 م]، ص : 07 .

(16) – انظر : ويتمر ، باربرا : الأنماط الثّقافيَّة للعنف ، ترجمة : ممدوح يوسف عمران ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد : 337 ، مارس 2007 م ، ضمن معالجة : (قضيَّة العنف .. ما هي ؟) .

(17) – شحرور ، محمَّد : تجفيف منابع الإرهاب ، سلسلة (دراسات إسلاميَّة معاصرة 05) ، مؤسَّسة الدِّراسات الفكريَّة المعاصرة ، الأهالي ، الطَّبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، [2008 م] ، ص : 19 .

(18) – المرجع السَّابق ، ص : 20 .

(19) – شحرور ، محمَّد : تجفيف منابع الإرهاب ، مرجع سابق ، ص : 20 .

(20) – أنظر : ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، مصدر سابق ، ج 02 ، ص : 409 – 410.

(21) – أنظر : المصدر السَّابق ، ج 02 ، ص : 447 .

(22) – نفسُه ، ج 02 ، ص : 447 .

(23) – شحرور ، محمَّد : تجفيف منابع الإرهاب ، مرجع سابق ، ص : 23 .